تقديم
الرسائل وثائق الحياة

صقر أبو فخر

الرسائل جنسٌ أدبي قديم يكاد يقارب، في مضمونه، اليوميات والتذكُّرات والخواطر. والرسائل تعرّفُنا إلى جوانب مستورة أحيانًا من شخصية صاحبها، وتجلو بعض سمات كاتبها من خلال التعبير عن شؤون عامة كالسياسة والثقافة والفكر، أو عن شؤون خاصة كالمعايدات والتبريكات والتعازي، علاوة على رسائل العُشاق التي تندرج في سياق حميمي مخصوص. وحتى الماضي القريب كانت الرسائل تُصنّف إما في فئة الديوانيات، وهي الرسائل الحكومية، أو الأخوانيات، وهي الرسائل المتبادلة مع الأصدقاء. وفي الأعمّ الأغلب، تكشف الرسائل عن ثقافة الكاتب، وعن مقدار البلاغة في أسلوبه وإنشائه، مع أن ميزة الرسائل هي عدم التأنق في اللغة. والرسائل تُكتب في لحظة ما لغرض ما، كإيصال فكرة محددة، من دون أن يتوقع صاحب الرسالة أنها ستجد طريقها إلى النشر في يوم من الأيام، ولذلك فهو لا يعتني بها عناية خاصة. وكان كاتبُ الرسائل في عصور الخلفاء والسلاطين والأمراء يهتم بالتزيين والتزويق والزخارف اللغوية والمحسّنات البديعية، بينما كاتب الرسائل اليوم يهمه، في المقام الأول، الفكرة فحسب، أو إيصال المعنى إلى مَن تُرسل الرسالة إليه.

والرسائل في مآلاتها التاريخية نافذة مهمة يطل منها القارئ على الحقبة التي تغطيها تلك الرسائل، خصوصًا إذا كان الكاتبُ مطلعًا على الشؤون العامة، ولا سيما قضايا السياسة والثقافة والمجتمع. وفي هذا الميدان، ربما نكتشف في الرسائل مفاتيح تساعدنا على فهم المرحلة التي عاش فيها كاتب الرسائل واختبرها مباشرة. وبهذا المعنى، فإن الرسائل تتحول من كتابة تلقائية إلى نص أدبي أو سياسي، وتصبح ذات قيمة في سياق سيرة الكاتب وتاريخ مسيرته. ولا ريب أن مرور الزمن يمنح الرسائل قيمة تاريخية. وهذه القيمة تكمن، بالدرجة الأولى، في مكانة الشخص المرسِل، وفي موقع الشخص المرسَل إليه. وتفقد الرسائل أهميتها إذا لم تتضمن معلومات مهمة أو مفيدة عن الزمن الذي كُتبتْ فيه، وعن أَعلام ذلك الزمن، وإذا لم تفصح عن أمور وثيقة الصلة بالكاتب نفسه.

كثير من الأَعلام نشروا مراسلاتهم، أو نُشرت لاحقًا، مثل أمين الريحاني وخليل مردم وطه حسين وأحمد

أمين (إلى ابنه في إنكلترا) ومصطفى صادق الرافعي (إلى محمود أبو رية) ومي زيادة (إلى أعلام عصرها وإلى جبران خليل جبران) وفدوى طوقان (رسائلها إلى أنور المعداوي وسامي حداد) وإدفيك جريديني شيبوب (مع أنطون سعادة)، والرسائل المتبادلة بين محمود درويش وسميح القاسم، ورسائل غسان كنفاني إلى غادة السمان، فضلًا عن رسائل معروف الرصافي ومراسلات عبد الرحمن منيف ومروان قصاب باشي، وجبرا إبراهيم جبرا إلى عيسى بُلاطة، ورسائل أنسي الحاج إلى غادة السمان. وإخال إن كثيرين منا قرأوا مراسلات فيدور دوستويفسكي، ومراسلات غوركي وتشيخوف، ورسائل السجن لأنطونيو غرامشي، ورسائل ماركس وأنغلز، ومراسلات جورج لوكاش، ومكاتبات جان بول سارتر وسيمون دي بوفوار، وغير هؤلاء ما لا يمكن إحصاؤه. بيد أن أدب التراسل يكاد ينحسر بالتدريج، لكن، من المحال أن يندثر هذا الجنس الأدبي حتى في عالم التكنولوجيا الحديثة وفي العوالم الافتراضية التي باتت الرسائل فيها مثل البرقيات؛ فلا شرح ولا تفصيل ولا إسهاب ولا بلاغة.

* * *

رسائل الصديق كريم مروّة تعيد الاعتبار إلى هذا الضرب من الكتابة، وتحيي تقليدًا جميلًا في مضمار الكتابة، أي "أدب المكاتبات". وهذه الرسائل تعكس شبكة من العلاقات الواسعة والمتشعبة التي كان يتحرك الأستاذ كريم مروّة في نطاقها، ويرتبط بعلائق متينة مع شخصياتها. وهذه الرسائل، السياسية والثقافية بالدرجة الأولى، لا ترجع كثيرًا في الزمن؛ فهي ليست قديمة أو متقادمة، بل حديثة ونضرة وحارّة. وتتجلى أهميتها، أولًا وأخيرًا، في صاحبها، وفي المواقع السياسية التي تسنّمها، وفي المسؤوليات التي تسلمها، وفي النشاط الثقافي الذي تصدى للاندغام فيه خلال الفترة ما بين 1985 و2020، ما يشير إلى أهمية القضايا التي كانت تشغل فكر الكاتب وذهنه في تلك المرحلة. وتسترجع رسائل كريم مروّة كثيرًا من تفصيلات الحياة السياسية في لبنان والعالم العربي، وتسلط النور الكاشف على بعض جوانب التطلعات السياسية العربية، وعلى طريقة الشيوعيين اللبنانيين في معالجة التناقضات الثانوية بين أطياف التقدميين العرب، ودأبهم على الدعوة إلى التعاون وبذل الجهد لإخماد تلك التناقضات. لكن اشتيار العسل لم يأتِ على قدرِ تلك التطلعات، فجاءت محصلة هذا النهج أقل بكثير من التوقعات.

نعثر في ثنايا هذه الرسائل على معلومات قيّمة عن المشكلات في داخل الحزب الشيوعي اللبناني (أنظر رسالة كريم مروة إلى فاروق دحروج في عام 1999، ورسالته إلى الشيوعيين اللبنانيين في مؤتمرهم العام التاسع في عام 2003)، ونقع أيضًا على معلومات ثرية عن الأوضاع اللبنانية المتعاكسة والمتشابكة (رسالته

إلى جورج حاوي في دمشق في عام 1985)، وعن أحوال السياسة والثقافة في العالم العربي، خصوصًا في مصر والسودان والعراق، علاوة على حال المؤتمر القومي العربي الذي يصفه بِـ "مؤتمر الديناصورات". وقد جعل كريم مروّة في نهايات بعض الرسائل فقرات إيضاحية، أو ملاحظات لا بد منها، لتنير على ما أحاط بكل رسالة في زمان كتابتها. وكل ملاحظة من هذه الملاحظات حيوية بحيث لا تكتمل قراءة الرسالة من دونها. وتضيء هذه الرسائل على كثير من المشكلات آنذاك، وعلى طرائق التصدي لها، ونستنتج من خلالها، أن التعاون العربي كان مستقرًا عند مستوى محدود ومحدد من التعاون والتنسيق والمثابرة والجهد المشترك، وهو أمر معروف تمامًا، لكنه في هذه الرسائل أصبح ملموسًا. وقد شُغل كريم مروّة بأمور متعددة أبرزها، ربما، سقوط الاتحاد السوفياتي (راجع رسالته إلى المفكر السوداني حيدر إبراهيم علي في عام 2006، ورسالة حلمي شعراوي إليه في عام 2009)، وانهمك مع رفيق دربه وصديقنا الراحل محمد دكروب في التفتيش عن دروب نافعة لإعادة إصدار مجلة "الطريق" التي صدرت بالفعل، وكان لي شرف الكتابة فيها ثلاث مرات آنذاك عن عبد الله العلايلي وعن قسطنطين زريق وعن الإرهاب الصهيوني في فلسطين. ومن بين الرسائل اللافتة، رسالة إنعام الجندي إلى كريم مروّة في عام 1993 التي كشفت جانبًا من عذابات إنعام الجندي وتشرده في بيروت ودمشق جراء مواقفه السياسية، وكذلك رسالة بطرس روحانا إلى صاحب الرسائل في عام 1993 التي أشارت بالأصابع العشرة إلى مشكلات العمل الإعلامي لدى الحزب الشيوعي، وإلى العوائق الجمة التي انتصبت أمام تحوّل الإعلام من الدعاية الأيديولوجية إلى الإعلام الحديث المؤسّس على المعلومات الصحيحة والعرض الجذاب والتحليل العلمي للوقائع.

* * *

كريم مروّة غضوب مع تأدب جمٍّ، الأمر الذي يجعل رسائله الحامية أقرب إلى العتاب، خصوصًا إذا كانت موجّهة إلى أصدقائه مثل رسالته إلى الصديق الأستاذ طلال سلمان (2012) الذي كان من حُسن طالعي أنني رافقته في جريدة "السفير" طوال سبعة وثلاثين عامًا، وكتبت فيها أولى مقالاتي في سنة 1975، أي منذ ستة وأربعين عامًا. وكذلك رسالته إلى جريدة "البيان" الإماراتية (2009). وتذكرنا هذه الرسائل باتساع صداقات كريم مروّة في العالم العربي أمثال إنعام الجندي وقيس الزبيدي وإسماعيل صبري عبد الله وإبراهيم سعد الدين وأبو سيف يوسف ورياض نجيب الريس وفالح عبد الجبار وقاسم حول وعلي ناصر محمد ونصر حامد أبو زيد وبلند الحيدري وعلي الشوك ومحمود أمين العالم ومحمد كامل الخطيب وجابر عصفور وجورج حبش ومصطفى الحسيني وكمال عبد اللطيف وتيسير قبعة وعصام الخفاجي وحازم الببلاوي ومحمود درويش وفيصل درّاج وحلمي سالم ومصطفى نبيل ورفعة الجادرجي وجورج طرابيشي وخالد محيي الدين وأحمد

حمروش ويوســـف العاني وجلال الطالباني وعبد العزيز المقالح وحيدر إبراهيم علي وجميل مطر ورفعت السعيد وإسحق الشيخ يعقوب وحلمي شعراوي وخير الدين حسيب، وهذه الأسماء غيض قليل من فيض عميم. ثم زيّن الكتاب بملحق وافٍ ضـمّ رسـائل إضـافية ومقالات ومشـروعات ثقافية وإعلامية، وتقارير مهمة ذات صلة وثيقة ومباشرة بالرسائل المنشورة. وهذا الملحق ليس مجرد زيادة في الكتاب، أو تجميع لبعض المقالات، وإنما هو، في الجوهر، جزء لا يتجزأ من الكتاب، يضيء على جوانب ظليلة من الرسائل.

لماذا نتكلم على الرسـائل المضـمومة في هذا الكتاب؟ لندع الرسـائل تتكلم بنفسـها عن نفسـها، أي عن كريم مروّة؛ هذا الشـاب الذي يخطو إلى المئة بثبات وتوثب، والذي منحني، بكثير من الود والمحبة الفرصـة لأن أكتب مقدمة هذا الكتاب الجميل، مثلما أتاح لي إجراء حوار مسـهب معه في سـنة 2002 ليصـدر في كتاب عنوانه "كريم مروّة يتذكر".